كفاح العرب السياسى ضد الصهيونية

للدكتور محمد عوض محمد بك

عند ما أخذت الحركة الصهيونية تنظم شئونها ، وتكيف برنامجها فى أواخر القرن الماضى ، كان كثير من الأقطار العربية خاضعاً للحكم العثمانى ، وكان يبذل جهده للخلاص من نير ذلك الحكم ، فكان الهدف الأول الذى وجهت إليه الجهود الوطنية أن تنال البلاد العربية حريتها واستقلالها . وعلى الرغم من أن مطامع الدول الاستعمارية لم تكن خافية على العرب ، والخطر الكامن وراء الدعاية الصهيونية آخذ فى الظهور ، فإن المظالم التى صاحبت الحكم العثمانى كانت هى الحقيقة الماثلة أمام الشعوب العربية ، تحسها فى كل يوم ، وتطالع آثارها فى كل لحظة . فلم يكن بمستغرب أنّ أول ما عنيت به الحركة الوطنية هو التخلص من الحكم العثمانى ، وإقامة حكومات عربية مستقلة .

ولكن هذا السعى إلى الاستقلال ، كان يشتمل على شىء من الكفاح ضد الصهيونية . فإن الحكم العثمانى أجاز إنشاء كثير من المستعمرات الصهيونية . وسمح لها أن تنمو وتترعرع فى ظله . ففى عام ١٨٦١ سُمح لليهود بإنشاء مدرسة زراعية بالقرب من يافا ، لتخريج زرّاع للمستعمرات المزمع إنشاؤها ؛ وقد أسست لهذا الغرض جمعية فى إنجلترا يهيمن عليها البارون إدمند دى روتشيلد ، واستطاعت أن تؤسس سبع مستعمرات ما بين عامى ١٨٨٣ و ١٩٠٠ ، وأكثرها بجوار يافا وحيفا والقدس . وبفضل هذه المستعمرات زاد عدد اليهود فى فلسطين من ٢٥٫٠٠٠ فى سنة ١٨٨١ إلى ٨٠٫٠٠٠ فى عام ١٩١٤ .

هؤلاء المهاجرون لم يكونوا قانعين بالحياة فى فلسطين أسوة بسائر سكانها ، بل أخذوا ينشئون مدارسهم ويستخدمون فيها اللغة العبرية ، وكانت لهم منشآتهم الخاصة ، وعملتهم التى يتداولونها ، وعمالهم التى يحتكمون إليها ، وكانوا ينفرون من بقية السكان ، ويعيشون كأنهم دولة وسط الدولة .

هكذا ولدت الصهيونية الفلسطينية تحت ظل الراية العثمانية ، ولم تفعل الدولة شيئاً لكبح جماحها ، ودفع شرورها ؛ فلا عجب إن كان بغض الصهيونية جزءاً من بغض التسلط

التركى والحكم العثمانى ، وكان المجهود الجبار الذى بذله العرب لنيل حريتهم أثناء الحرب العالمية الأولى هو بداية الكفاح العربى ضد الصهيونية .

وفى وسعنا أن نقسم هذا الكفاح إلى أربع مراحل : الأولى الثورة العربية على الحكم العثمانى ، والثانية كفاح الاستعمار الأوربى الذى آوى الصهيونية وجعلها تحت رعايته ، والمرحلة الثالثة تمثل تضامن الأقطار العربية لنصرة فلسطين من عام ١٩٣٩ إلى تأسيس جامعة الدول العربية . والمرحلة الرابعة هى الكفاح المنظم تحت ظل الجامعة وبقيادتها . وسنتناول كلاً من هذه المراحل الأربع بشىء من الوصف .

١ — الثورة العربية

تولى الشريف حسين بن علىّ قيادة الحركة العربية من مركزه فى مكة أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن الإنجليز أول الأمر راغبين فى مثل هذه الحركة ، لأنهم خشوا أن تحول بينهم وبين تحقيق مآربهم فى الشرق العربى . غير أن هزيمتهم الأولى فى العراق ، وسير الحرب فى أوربا ، أتاحا الفرصة لجماعة من أنصار العرب من البريطانيين من أمثال لورنس ، ومن على شاكلته ، فطلبوا من الحكومة البريطانية أن تؤيد الثورة العربية وتشد أزرها . من أجل ذلك دارت تلك المفاوضات بين الشريف حسين وبين مندوب بريطانيا فى مصر المدعو هنرى مكماهون ، وقد تبادل فيها الطرفان نحو عشر رسائل . ونظراً لأن هذه الرسائل تشتمل على ركن هام من الكفاح العربى ضد الصهيونية فلا بد لنا أن نورد هنا خلاصتها .

كتب الشريف حسين فى ١٤ يوليه سنة ١٩١٥ يبلغ المندوب السامى البريطانى فى مصر تصميم الأمة العربية على نيل حريتها واستقلالها ، واستعدادها لأن تساهم فى تحرير الأقطار العربية من العدو المشترك ، على شرط أن تعترف الحكومة البريطانية باستقلال البلاد العربية التى تحد شمالا بخط يبدأ من مرسينا ويمتد إلى أطنة وأرفا ومردين ، وجزيرة ابن عمر وإلى حدود إيران ، وتحد شرقا بالحدود الإيرانية وخليج البصرة ، وجنوبا بالمحيط الهندى فيما عدا عدن ، التى تظل على حالها التى كانت عليها ، وغربا بالبحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسينا .

رداً على هذا الكتاب أرسل المندوب السامى البريطانى خطابا فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ يقول فيه إن إقليم أطنه ومرسينا ، والأراضى الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب ليست عربية صرفة ، ولذلك يجب أن تستبعد من الحدود المذكورة ، أما فيما عداها فإن الحكومة البريطانية تقبل أن تكون الحدود كما وضعها الشريف حسين ، وهى مستعدة لتأييد استقلال العرب داخل تلك الحدود .

وقد قبل الشريف حسين استثناء أطنه ومرسينا ، ولكنه أصر على أن سواحل سوريا الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب ، كلها أقطار عربيـة صرفة ، وأن من فيها من النصارى لا يقلون فى عروبتهم ووطنيتهم عن المسلمين ، وأنه لذلك يصرّ على المطالبة بأن تظل هذه الأقطار جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربى .

وقد حاول المندوب البريطانى بعـد ذلك أن يشرح للشريف حسين أن موضوع تلك الجهات أمر لا تملك بريطانيا أن تبت فيه وحدها ، لما لفرنسا فيه من مصالح ، لابد لبريطانيا من مراعاتها حرصا على بقاء الوحدة بين الدولتين فى كفاحهما المشترك ، غير أن الشريف أصرّ على موقفه ، وقال إنه يحتفظ بحق العرب فى تلك الجهات بعد أن يتم النصر للحلفاء .

لهذه الرسائل شأن كبير فى مشكلة فلسطين ، فقد حاولت بريطانيا أن تفسر نصوصها بأن الأقطار الواقعة غربى دمشق تشمل فلسطين ، فكان دفاعها فى هذه النقطة بادى الضعف لأن هـذه الرسائل لم تشر بكلمة واحدة إلى فلسطين أو إلى الصهيونيين . ولم يجئ فيها إلا ذكر الجهات التى تزعم فرنسا أنها تهمها ، ولا يستطيع إنسان عاقل أن يزعم أن مدينـة القدس أو نابلس أو طبرية واقعة إلى الغرب من دمشق .

لم يكن وعد بلفور قد صدر بعد ، أو لاحت طلائعه فى الأفق ، ولذلك لا نستطيع أن نلوم الشريف حسين أو مستشاريه ، لأنهم لم يصروا على بيان أكثر جلاء ووضوحا . وعند صدور تصريح بلفور حاول الإنجليز جهدهم أن يخفوه عن العرب ، وأن يهونوا من أمره ، طبقاً للسياسة الانتهازية التى تجرى عليها إنجلترة فى أكثر المناسبات .

وقبل أن نوجه نقداً للساسة العرب فى هذا الشأن يجدر بنا أن نذكر الأمور الآتية :

أولا : كانت الحركة الوطنية العربية فى حالة تحفز وتوثب ، وتريد أن تعمـل لتحرير البلاد العربية لـكى يكون لها بعض الفضل فى ذلك التحرير .

ثانيا : أن خبرة العرب بالسياسـة الغربية وما اشتملت عليه من مراوغة كانت قليلة ، وتجاربهم مع الإنجليز محدودة .

ثالثاً : كانت المشكلة الوحيدة فى نظرهم هى مطامع فرنسا فى لبنان ؛ وكانوا يرجحون أن التحالف الذى بين إنجلترة وفرنسا قليل الخطر .

رابعاً : لعل أهم عنصر فى الموقف أن العرب كانوا حسنى الظن بالإنجليز إلى أبعد حد . ولعلهم اغتروا بمن شاهدوهم حولهم من الذين يعطفون على قضية العرب من أمثال لورنس .

وهكذا مضى العرب فى ثورتهم ، وتم للحلفاء النصر بمؤازرة العرب . ثم جاء أوان السلم

واستقرار الأمور ، ورد الحقوق المغصوبة إلى أصحابها ، فإذا العرب يفاجأون بالانتداب البريطانى على العراق ، والفرنسى على سوريا ولبنان ، والصهيونية فى فلسطين .

٢ — مكافحة الاستعمار

ننتقل إلى المرحلة الثانية من الكفاح العربى ، فى فترة تمزقت فيها وحدة البلاد العربية ، وأصبح لكل قطر عربى مشكلاته الخاصة فى مقاومة الاستعمار البريطانى أو الفرنسى . فانصرفت جهود أبنائه إلى مكافحة قوى الظلم والبغى فى قطرهم الخاص ، وقد اعترفت معاهدة ڤرساى وملحقاتها للأقطار المتخلفة عن انحلال الدولة العثمانية بحقها فى الاستقلال ؛ ولكنها فرضت عليها انتدابات لا تختلف فى حقيقتها ومظهرها عن أقبح أنواع الاستعمار . فثار أبناء كل قطر لمكافحة العدوان الذى نزل بهم . واستنفد هذا الجهاد الشطر الأكبر من جهودهم .

فى هذه الفترة لم يكن بدٌّ من أن يقع عبء مكافحة الصهيونية على عاتق أبناء فلسطين أنفسهم ، وعلى الرغم من أن جميع الأقطار العربية كانت دائماً تعطف على قضية فلسطين ، وأن كثيراً من قادة الرأى فى كل قطر عربى كانوا يشدون أزرها جهد طاقتهم ، فإن الظروف التى تقدم وصفها جعلت من المستحيل أن يقوم العالم العربى بمجهود منظم مشترك لمكافحة الصهيونية ، فى البضعة عشر عاماً التى أعقبت الحرب العالمية الأولى .

فالفضل الأول والأكبر فى مكافحة الصهيونية فى العهود الأولى من الانتداب ، راجع إلى أهل فلسطين أنفسهم . وقد أدوا بكفاحهم هذا إلى العروبة كلها — لا إلى فلسطين وحدها — أجل الخدمات ، ولا يستطيع المرء أن يملك نفسه من الإعجاب البالغ بالشعب الفلسطينى العربى ، الذى استطاع وحده فى هذه السنين الطوال — دون أن يدركه السأم أو الكلال — أن يواجه قوات الشر والظلم الاستعمارى الذى يمثله البريطانيون ، وعصابات الإجرام والخيانة التى تتمثل فى الصهيونيين فى فلسطين ، ومن ورائهم عصابات من الأنصار فى أوربا وأمريكا .

كانت وثيقة الانتداب التى وضعها الإنجليز بتحريض الصهيونيين ، ووافقت عليها بعد ذلك هيئة الأمم المتحدة ، وثيقة بادية التحيز والجور ، لا تكاد بنودها الثمانية والعشرون أن تشتمل على شىء سوى حقوق الصهيونيين ورفاهيتهم وهجرتهم ، وتحقيق مآربهم وأوطارهم . ولم يجئ فيها ذكر للعرب ، ولم يرد فيها لفظ « عربى » إلا عند الإشارة إلى أن اللغة العربية إحدى اللغات الثلاث الرسمية . أما السكان العرب فلم يذكروا فيها مرة واحدة ، بل اكتفى

فى بعض البنود بمجرد الإشارة إلى « السكان الآخرين » لفلسطين . فكان من الواضح أن الانتداب لم ينشأ إلا لغرض واحد وهو إقامة الوطن الصهيونى ، وإحاطته بجميع ضروب الرعاية والعناية ، التى تكفل له التقدم والفلاح والسيطرة على البلاد وسكانها .

لو أن عرب فلسطين قابلوا هذه الحال بالرضى والسكون ، ولم ينهضوا لكفاح الصهيونية والاستعمار ، لما كان هنالك شك فى انتصار قوى البغى والعدوان انتصاراً كاملا سريعاً . ولكن عرب فلسطين لم يخضعوا ولم يستكينوا ، بل نهضوا منذ بداية الانتداب إلى الثورة على الضيم الذى يراد بهم ، واضطروا حكومة الانتداب والصهيونيين لأن يحسبوا لمقاومة العرب حسابها . ومن مظاهر كفاح العرب الفلسطينيين ما يأتى :

١ — الاتفاق التام بين المسلمين والنصارى . بحيث مُحيت الاختلافات الطائفية بين عرب فلسطين تماماً ، وأصبحت فلسطين فى هذا الأمر قدوة للأقطار العربية ، بل للعالم بأسره .

٢ — نهضة جديدة تتناول جميع النواحى الأدبية والمادية . فأقبل سكان فلسطين على إنشاء المعاهد العربية الخالصة ، وإنهاض الحياة العقلية والثقافية ، والإلحاح على دولة الانتداب بأن تنشأ المدارس العربية ، وأخذ فوج متزايد من أبناء فلسطين ينزح إلى لبنان والعراق والشام ومصر ، فى طلب العلم .

ونهضت الصحافة العربية فى فلسطين نهضة ملحوظة ، بحيث أصبح للعرب فى فلسطين منبر يسمع منه العالم العربى صوت أبناء القطر الشقيق ، فيشاطرهم آلامهم وآمالهم .

وصاحَب هذا كله — فى الناحية المادية — نهضة اقتصادية عظيمة الخطر . فعلى الرغم من أن العرب لم تأتهم تلك الإمدادات المالية التى كانت ترد إلى الصهيونيين من جميع أنحاء العالم ، أمكنهم أن يخطوا خطوات واسعة سديدة فى الزراعة والتجارة والصناعة .

٣ — التنظيم السياسى . على الرغم مما نسمعه من أن عرب فلسطين قد انقسموا فرقاً وأحزاباً ، فإن مثل هذه الانقسامات الحزبية أمر لا مفر منه ؛ وهى من الظاهرات التى تلازم الوعى السياسى فى كل قطر من الأقطار . وحسبنا أن جميع تلك الأحزاب ليس لها سوى برنامج أساسى واحد ، لا يكاد يختلف ، وأنها كلها تسعى إلى تحقيق هدف واحد ، وهو التخلص من الخطر الصهيونى والحكم الاستعمارى . ومهما قيل فى نقد هذه الأحزاب ، فإنها كانت وسيلة لتنظيم الحياة السياسية ، وإيجاد أداة وقيادة للحركة القومية . وفى إبريل سنة ١٩٣٦ أمكن لهذه الأحزاب أن تتحد وأن تؤلف « اللجنة العربية العليا » ، التى تولت قيادة عرب فلسطين فترة من الزمن ، وقد أعيد تأليفها فى الأعوام الأخيرة ، ولا تزال إلى

اليوم تؤدى لقضية فلسطين خدمات جليلة . ليس أقلها خطرا أنها هى الأداة التى أمكن بواسطتها إيجاد اتصال وثيق بين فلسطين وبين جامعة الدول العربية .

ويدخل فى هذه المنظمات — وإن لم يكن ذا صبغة سياسية صرفة — إنشاء نقابة للعمال العرب ، أمكنها أن تعمل لرفع مستوى العمال ولحمايتهم من جور أحزاب العمال الصهيونية ، بل كان لها فوق ذلك نشاط سياسى ملحوظ .

٤ — الثورة على سلطات الانتداب . لعل أكبر مظهر للنشاط السياسى للشعب الفلسطينى العربى هو تلك الثورات المتتالية التى قام بها منذ بداية الانتداب إلى سنة ١٩٣٩ . ومن الصعب أن نفصل القول هنا فى هذه الثورات ، وما كان لها من الآثار . وليس من الإسراف فى شىء أن نقول إن عرب فلسطين فى العشرين عاما التى تلت الحرب العالمية ، رأوا أن آمالهم تحطمت على صخرة الشهوات الاستعمارية ، كانوا فى حالة ثورة دائمة ، وإن كانت ثورتهم قد اتخذت صورة أظهر وأكبر فى بعض الأوقات ، وهذه الثورات لم تهدأ ولم تضعف على مضى الزمن ، بل ازدادت حدة وشدة على مر السنين ، حتى صارت فى سنة ١٩٣٦ ثورة عسكرية منسقة ، بقيادة موحدة ، وقوات منظمة .

والعالم الغربى لا يفهم الحق ما لم تؤيده مظاهر القوة . ولذلك اكتسب الشعب الفلسطينى العربى احترام الإنجليز وتقديرهم رغم أنفهم . وأمكن فى الوقت نفسه للعالم العربى أن يستيقظ وأن ينتبه لما يفرضه واجب العروبة من مساعدة فلسطين ومؤازرة سكانها .

لم تكن هذه الثورات فى أى وقت من الأوقات تنتهى بانتصارات عسكرية للعرب ، ولكنها من غير شك كانت تنتهى فى كل مرة بانتصارات سياسية ظاهرة لقضية العرب . فقد كانت حكومة الانتداب بعد كل ثورة ترسل اللجنة إثر اللجنة ، والبعثة بعد البعثة . لكى « تحقق » فى أسباب « الاضطراب » . فكانت هذه اللجان جميعا ومن غير استثناء ، تظهر فى تقريرها ما للعرب من حقوق مهضومة ، وما يتعرضون له من الظلم بسبب نظام الانتداب الصهيونى . وعلى الرغم من أن حكومة بريطانيا لم تستطع — لوقوعها تحت الضغط الصهيونى — أن تنفذ ما أوصت به تلك اللجان ، فإن هذه التقارير كانت نصراً سياسياً كبيراً للعرب ، ومقياسا واضحا لنجاحهم فى كفاحهم السياسى ضد الصهيونية .

٣ — تأييد الأقطار العربية

تمثل الثورة العربية فى فلسطين عام ١٩٣٦ بداية مرحلة جديدة فى مكافحة الصهيونية ،

لأن بعض الدول العربية أخذت تساهم بنصيب متزايد من العناية والاهتمام بقضية فلسطين . لم يكن فى وسع سوريا ولبنان ، بعد ، أن تشتركا رسمياً فى هذا الجهاد الجديد ، لأن الانتداب الفرنسى كان لا يزال جاثما على القطرين . ولكن أقطاراً عربية أخرى تتمتع بنصيب وافر من الاستقلال ، فى ظل حكومات عربية صميمة ، استطاعت أن تدخل ميدان الدفاع عن قضية فلسطين ، وأن ترسل الإرشادات اللازمة لمندوبيها السياسيين فى بريطانيا ليبذلوا جهدهم فى لندن أو غيرها من العواصم لنصرة تلك القضية ؛ وليدافعوا عنها فى عصبة الأمم نفسها .

ورأت حكومة إنجلترا أنها قد مضت فى مناصرة الصهيونية إلى أبعد مدى ، وأن صوت العرب فى فلسطين أصبح يعبر عن مشاعر العالم العربى كله ، وأن الانتداب بشروطه القديمة أصبح نظاما مستحيل التنفيذ ، ولذلك رأت أن تنشىء عهدا جديداً ، ونظاما جديداً ، يقبله العرب واليهود إذا أمكن ، ويشترك فى وضعه الجانب العربى واليهودى من أهل فلسطين ، ومندوبون عن دولة مصر ، والعراق ، وبلاد العرب السعودية ، وشرق الأردن ، واليمن .

ودعت الحكومة البريطانية هذه الدول إلى إرسال مندوبيها إلى لندن . فكان ذلك أول اعتراف صريح من حكومة الانتداب بأن مسألة فلسطين هى قضية العالم العربى كله . وقد أرسلت الدول العربية مندوبيها لحضور هذا المؤتمر فى شهر فبراير ومارس سنة ١٩٣٩ ؛ وكان رئيس وفد مصر سمو الأمير عبد المنعم ، ومعه على ماهر باشا ، ووزير مصر المفوض بلندن ، ووزير مصر بالعراق (عزام باشا) ؛ وكان يمثل العراق نورى السعيد باشا ، يعاونه وزير العراق فى لندن ، وقام الأمير فيصل آل سعود بتمثيل دولته ، يعاونه وزير المملكة السعودية المفوض فى لندن .

وهذا التمثيل القوى للبلاد العربية يرينا مبلغ اهتمام الأقطار العربية بقضية فلسطين ، وهذه الظاهرة لم تزد على مر السنين إلا توكيداً ووضوحاً ؛ وفى مؤتمر لندن أمكن لحكومة إنجلترا للمرة الأولى أن تقابل العرب وجهاً لوجه فى لندن ، وأن تصغى إلى آرائهم ، وأن تضع مقترحاتهم موضع التقدير .

ولعل حكومة إنجلترا كانت تدرك دائما أن ما يتعرض له عرب فلسطين من الظلم كان له أثره السيء فى العالم الإسلامى عامة ، وفى العالم العربى بوجه خاص . ولكنها مضت فى سياستها الصهيونية ولم تحاول أن تخفف من حدتها ، لأن تدخل الدول العربية لم يتخذ صورة قوية قبل سنة ١٩٣٦ ، ولأن ضغط الصهيونيين على حكومة انجلترا وبرلمانها كان أشد تأثيراً فى سياستها ، وكان كثير من أولى الأمر فيها ممن استطاع الصهيونيون استمالتهم أو شراء ضمائرهم .

وقد جعلنا نقطة التحول فى سياسة انجلترة ثورة العرب فى فلسطين سنة ١٩٣٦ ؛ ومن الممكن تلخيص الأسباب التى حملت انجلترة على محاولة تعديل سياستها الفلسطينية فى الأمور الآتية :

١ — أن ثورة سنة ١٩٣٦ لم تكن ثورة على الصهيونيين وحدهم ، بل على حكومة الانتداب أيضا ، وقد اضطرت انجلترة إلى جلب وحدات من الجيش من مصر وقبرص ومالطة ، وإلى بذل مجهود عسكرى منظم .

٢ — أصبح العالم العربى شديد الاهتمام بشئون فلسطين ، يرى قضيتها قضيته ، سواء فى هذا شعوب العالم العربى أو حكوماته ، وقد رأت انجلترة نفسها أن تستعين برؤساء الدول فى مختلف البلاد العربية لكى يبذلوا النصح والإرشاد لعرب فلسطين ، حتى يكفوا عن أعمال العنف ، فكانت هذه الدعوة اعترافاً صريحا بأن مسألة فلسطين ليست قاصرة على عرب فلسطين .

٣ — الأمر الثالث — ولعله أهم العوامل عند الإنجليز — التطور السيىء للحالة الدولية فقد قويت شوكة المحور ، واعتدت إيطاليا على استقلال الحبشة ، فأضعفت بذلك مركز انجلترة فى الشرق الأوسط . وأخذت الدعاية النازية تفضح السياسة البريطانية فى فلسطين . واكفهر جو السياسة الدولية ، بحيث بات ينذر بخطر محقق ، حتى أصبحت انجلترة تدرك أنها لن تكسب شيئا بمجابهة العرب ومسالأة الصهيونيين إلى أقصى حد .

٤ — صار للعرب فى ذلك الوقت صوت مسموع فى عصبة الأمم وبات فى وسعهم أن يستخدموا هذا المنبر العالمى للدفاع عن عروبة فلسطين . وفيما مضى كانت لا تصل إلى العصبة سوى الشكاوى التى ترسلها اللجنة العربية العليا ، وبعض الأفراد والهيئات فى فلسطين . أما الآن فقد أصبح بعض الدول العربية أعضاء فى عصبة الأمم يدافعون عن قضية فلسطين من داخل الهيئة لا من الخارج .

وهكذا تحولت قضية فلسطين — بصورة رسمية — بحيث أصبحت قضية العالم العربى . ولابد هنا أن نشير إلى ناحية أخرى لاهتمام الدول العربية بأمر فلسطين . تلك أن قادة الدول العربية أصبحوا عنصرا هاما فى توحيد كلمة عرب فلسطين ، وإزالة ما بين الأحزاب الفلسطينية من أسباب الخلاف . وقد أوفدت الدول العربية غير مرة بعض مندوبيها لكى يسعى بين تلك الأحزاب ، ويدعوها إلى الاتحاد والائتلاف . وهذه الجهود كانت تنال دائما حظا كبيراً من التوفيق ، وستكون دائما عاملا هاما فى توحيد كلمة فلسطين .

وبعد أن شرد كثير من قادة الرأى فى فلسطين وسجنوا أو نفوا إلى بلاد بعيدة ، ولم يبق بها منهم من تلتف حوله جماعات الشعب الفلسطينى ، كانت قضية فلسطين أمانة فى عنق الدول العربية ، وقد أدت هذه الدول الأمانة فى قوة وإخلاص .

* * *

لم يسفر مؤتمر لندن عن اتفاق يرضاه العرب واليهود الصهيونيون . فأصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض المعروف فى شهر مايو سنة ١٩٣٩ ، وقد رسم هذا الكتاب السياسة التى آلت حكومة انجلترة على نفسها أن تتبعها فى فلسطين ، وتشتمل هذه السياسة على ثلاثة عناصر رئيسية :

الأول : تحديد مهاجرة اليهود ، بحيث لا يدخل منهم فلسطين بعد ذلك التاريخ سوى ٧٥,٠٠٠ مهاجر ، موزعين على خمس سنوات تنتهى فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٢ .

الثانى : منع بيع الأراضى لليهود إلى جهات محدودة حول القدس وتل أبيب وحيفا وبعض جهات أخرى .

ثالثاً : التدرج فى نظام الحكم ، بحيث تنشأ فى فلسطين حكومة موحدة فى مدى عشرة أعوام

لا شك فى أن هذه الوثيقة تمثل تراجعاً كبيراً فى السياسة البريطانية ، لأنها للمرة الأولى استطاعت أن تعلن أن اليهود لن يسمح لهم بأن يكونوا أكثر من ثلث سكان فلسطين ، وأن معظم الأراضى يجب أن يظل فى أيدى ملاكها من المزارعين العرب .

ومما لا شك فيه أن هذه السياسة تعد نصراً مؤكداً للعرب ، وثمرة من ثمرات كفاحهم الطويل ، ولو أنها لم تحقق ما كانوا يطالبون به .

وعلى أثر مؤتمر لندن ، عقد مؤتمر عربى فى القاهرة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن أول مؤتمر عربى بفلسطين ، فإنه امتاز باشتماله على ممثلين رسميين لحكومات الدول العربية . وقد أسفر هذا المؤتمر عن طائفة من المقترحات العملية لحل قضية فلسطين على أساس عادل . ولكن حكومة بريطانيا فضلت كتابها الأبيض والسياسة التى اشتمل عليها ، وقد أثبتت الحوادث أن العرب كانوا أبعد نظراً وأصدق سياسة من البريطانيين . وأهم نواحى الاختلاف بين السياستين أن مشروع القاهرة يقرر الشروع فوراً فى إنشاء حكومة وطنية ديمقراطية فى فلسطين ، وأن يقوم بين هذه الحكومة وبريطانيا تحالف مؤيد بمعاهدة بين الطرفين . وبديهى أن انجلترة لم تقبل هذا الحل فى ذلك الوقت لما جرت على نفسها كل تلك الويلات

والكوارث ، التى انتهت بخروجها من فلسطين فى صورة لا نستطيع أن نصفها بأقل من أن الصهيونيين — وهم صنائع الإنجليز — كانوا السبب المباشر فى إخراجها منها .

* * *

فى أثناء الحرب العالمية ساد نوع من الهدوء فى فلسطين ، لأن العرب كانوا يراقبون باهتمام تنفيذ بريطانيا للسياسة التى نظمها الكتاب الأبيض ، ولأن العرب لم يكونوا يعطفون على دول المحور ، وأشفقوا من أن يخلقوا للدولة الانتداب مشاكل تعجزها عن متابعة الأعمال الحربية . وهذه السياسة نرى أثرها واضحاً فى قلة تأييد العرب لثورة رشيد الكيلانى .

غير أن الصهيونيين لم يهدأوا ولم يستكينوا ، وانغمسوا فى أعمال الشغب والعنف فى أثناء الحرب ، وكان نشاطهم الإجرامى يزداد ازدياداً مطرداً كلما قربت الحرب من نهايتها . هذا على الرغم من أن بريطانيا كانت تحارب النازيين ، وهم العدو الأكبر لليهود . أما نشاطهم السياسى ، فقد اتجه بوجه خاص إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث أمكنهم أن يكتسبوا عطف الرئيس روزفلت ، وأن يحرزوا مجلس الشيوخ ومجلس النواب فى واشنطن على النظر فى اقتراحات خطيرة تؤيد الصهيونيين أشد التأييد .

قدمت هذه الاقتراحات فى عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ . وفى المرة الثانية كان المعروض على الكونجرس الأمريكى أن يوافق على فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية من غير قيد ولا شرط ، وأن تتحول فلسطين بعد الحرب إلى دولة يهودية حرة ، وأن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها فى تحقيق هذا الهدف .

لم يكد هذا المشروع أن يثار فى البرلمان الأمريكى ، حتى بادرت الدول العربية جميعاً — ومنها الآن سوريا ولبنان — بالاحتجاج الشديد لدى الحكومة الأمريكية ، وكان لهذه الاحتجاجات القوية أثرها . حتى اضطرت الجنرال مارشال رئيس أركان حرب القوات الأمريكية إلى الضغط على البرلمان الأمريكى بأن يعدل عن هذه المقترحات .

وفى أوائل عام ١٩٤٥ كان الرئيس روزفلت عائداً من مؤتمر «يلطا» ماراً بالبحر الأبيض المتوسط ، وقد رست به سفينته بعض الوقت فى بحيرة التمساح بقناة السويس . وزاره هناك الملك عبد العزيز آل سعود ودار بينهما حديث ، احتلت فيه قضية فلسطين المكان الأول . وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله الرئيس روزفلت نفسه فى هذا الصدد ، فى رسالته عن رحلته التى أرسلها إلى الكونجرس ، والتى قال فيها إن هذه اللحظات التى قضاها مع الملك عبد العزيز قد علمته عن مشكلة فلسطين أكثر مما كان يعرف فى مدى سنوات عديدة ،

ومنذ عاد الرئيس روزفلت إلى أمريكا ظهر تحول واضح فى موقفه من الصهيونيين ، فلم يعد يفتح لهم باب البيت الأبيض ، أو يستمع إلى شكاياتهم ومطالبهم التى لا تنتهى .

وبعد عودة الرئيس إلى واشنطن تلقى رسالة طويلة من الملك عبد العزيز ، والراجح أنه كان ينتظر مثل تلك الرسالة . وقد شرح فيها الملك العربى قضية فلسطين شرحا وافياً . وضمنها كل حجة دامغة تمزق دعاوى الصهيونيين شر ممزق . ولم يلبث أن جاء الرد من الرئيس روزفلت ، يعلن أنه لن يحدث أى تحول فى حالة فلسطين السياسية ، دون الرجوع إلى رأى العرب واليهود ، وأن حكومة الولايات المتحدة لن تبدأ من تلقاء نفسها بالمطالبة بإحداث أى تغيير فى فلسطين .

وقد وجه سائر ملوك ورؤساء الدول العربية رسائل فى نفس المعنى والتاريخ إلى رئيس الولايات المتحدة ، وتلقت منه ردوداً مشابهة . ولاشك أن وفاة الرئيس بعد ذلك بقليل كانت خسارة كبيرة للعالم العربى ولقضية فلسطين ، بعد أن جاهد قادة العرب جهادا صادقا لإفهامه قضية فلسطين على حقيقتها ، ومكنوه من أن يدرك تضليل الصهونيين وبطلان دعايتهم .

وقد حاول الرئيس ترومان بعد ذلك أن ينكر أن مثل هذه الرسائل قد تبودلت ، وسولت له نفسه أن يزعم أنه يجهل وجود أمثال هذه المكاتبات . ولكن الدول العربية اضطرته إلى أن يعدل عن هذا الموقف الغريب ، وأن يعترف بوجود هذه الرسائل . ولم يكن ما يقبله العقل أن يجهل نائب الرئيس عملا خطيرا كهذا من أعمال رئيسه ، وكان بوسعه لو شاء أن يستوثق من الأمر قبل أن يندفع فى زعمه الباطل ، وأن يتخذ موقفا لم يكن له أن يرجع عنه ، وليس فى مثل هذا الحادث ما يحفظ لرئيس كرامته أو يشجع على الثقة به .

٤ — قيام جامعة الدول العربية

لا شك أن قيام التعاون السياسى والاقتصادى والثقافى المنظم بين الأقطار العربية ، الذى يتمثل فى جامعة الدول العربية ، كان ولا يزال أكبر أداة لمكافحة الصهيونية وأنصارها . ومن الممكن أن نقول إن نظام جامعة الدول العربية قد جاء بعد أن وجد ذلك التعاون فعلا ، وبعد أن كانت تلك الجامعة قائمة بالفعل ، وإن لم تكن قد أنشئت رسميا بعد ، فلم يكن هذا الإنشاء الرسمى سوى اعتراف بالأمر الواقع . بدأ هذا التعاون بصورة قوية منذ سنة ١٩٣٦ ثم أخذ ينمو نموا مطردا . وفى أثناء الحرب كان العرب فى جميع محافلهم وأنديتهم لا يتحدثون

فى شىء أكثر من حديثهم عن وحدة البلاد العربية ، والصورة التى يجب أن تتخذها تلك الوحدة . وبدأت المداولات فى أثناء عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ ، وانتهت بوضع بروتوكول الإسكندرية ، موقعاً عليه من المندوبين الرسميين لخمس دول عربية ، وهى : لبنان والعراق وسوريا وشرق الأردن ومصر ، فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ . ثم وضع الميثاق فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ، ووافقت عليه الدول العربية السابقة الذكر ومعها المملكة العربية السعودية ، كما انضمت إليها بعد قليل مملكة اليمن .

وفى كل من البروتوكول والميثاق أبدت الدول العربية عنايتها واهتمامها بقضية فلسطين . فجاء فى البروتوكول قرار خاص بفلسطين ، ينص على أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية ، وأن حقوق العرب لا يمكن المساس بها من غير إضرار بالسلم والاستقرار فى العالم العربى ، ويعلن تأييد الدول العربية لعرب فلسطين بالعمل على تحقيق أمانيهم المشروعة فى قضيتهم العادلة .

أما الميثاق فقد عنى عناية خاصة بالوضع السياسى لفلسطين ، والوسيلة التى يجب أن تتبع لضمان مساهمة سكانها العرب فى أعمال الجامعة العربية . ولهذا الغرض اشتمل الميثاق على ملحق خاص بفلسطين ؛ ينص على أن استقلالها الدولى من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه . وأنه إذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا ينبغى أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها فى أعمال مجلس الجامعة . ولذلك رأت الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية ، أنه نظرا لظروف فلسطين الخاصة ، وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا ، يتولى مجلس الجامعة اختيار مندوب عربى من فلسطين للاشتراك فى أعماله .

كان تضمين الميثاق هذا الملحق الخاص بفلسطين أمراً على جانب كبير من الأهمية ، لأنه مكن عرب فلسطين من الاشتراك الرسمى فى مداولات الجامعة ولجانها ومؤتمراتها من جهة ، ومن جهة أخرى ساعد على توحيد كلمة الفلسطينيين وتنسيق نشاطهم وجهودهم بحيث تتمشى مع الإجراءات والسياسة التى يرسمها مجلس الجامعة .

ومنذ تمت الموافقة على الميثاق مضت جامعة الدول العربية فى جهودها لنصرة فلسطين ، وازدادت هذه الجهود أضعافاً مضاعفة . ومن المستحيل أن نحيط بجميع هذه الجهود فى هذا المقام المحدود . وعلى الأخص أن معظمها لا يزال ماثلا فى أذهاننا وأمام أعيننا . وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض النواحى الهامة لكفاح جامعة الدول العربية . من أجل فلسطين ؛ ولعل أهمها توحيد وتنسيق العمل فى المؤتمرات الدولية عامة ، وفى اجتماعات هيئة الأمم المتحدة بوجه خاص .

كان لوجود جامعة الدول العربية فضل كبير فى اعتراف الأمم المتحدة لهذه الدول بأنها مجموعة متضامنة تؤلف وحدة إقليمية ذات شأن . وقد ضمن هذا أن يكون للجامعة عضو يمثلها فى مجلس الأمن . وفى سائر الهيئات واللجان التى يشتمل عليها نظام الأمم المتحدة .

وكان لهذا الأمر أعظم الأثر فى الدفاع عن قضية فلسطين ، وقد رأينا ذلك فى وضوح ، ولا نزال نشاهده حتى اليوم ، فى الدفاع المجيد الذى يقوم به مندوب سوريا فى مجلس الأمن عن شئون فلسطين . والحقيقة أن ممثل سوريا فى مجلس الأمن هو ممثل لجامعة الدول العربية كلها .

واشتركت الدول العربية فى مؤتمرين فى لندن ، فى أواخر عام ١٩٤٦ وأوائل عام ١٩٤٧ وبفضل جهودها الموفقة أمكن مكافحة النفوذ الصهيونى الذى كان يسيطر على حزب العمال . وأخذت حكومة العمال تنظر إلى قضية فلسطين نظرة أقرب إلى الحقيقة . ومن أهم الثمرات التى نشأت من اجتماع لندن ذلك المشروع العربى لحل قضية فلسطين ، الذى يمتاز بالهدوء والاعتدال ، ولا يستطيع منصف أن ينكر أنه أفضل حل لتلك القضية ، على كثرة ما عرض فيها من الحلول ، وما أثير حولها من الارجاف .

وقد أمكن لجامعة الدول العربية أن تعنى بالدعاية لقضية فلسطين ومساعدة المكتب العربى فى انجلتره وأمريكا على النهوض بأعماله فى هذا الميدان الهام ؛ كما أنها استطاعت أن تنظم الوسائل التى تتبع لمقاطعة الصناعات والسلع الصهيونية ، فأنزلت بالاقتصاد الصهيونى أفدح الخسائر .

وبديهى أنه لولا النشاط السياسى الذى اضطلعت به جامعة الدول العربية ، لما تيسر لها بذل ذلك المجهود الحربى المنظم ، لتحرير فلسطين والقضاء على العصابات الإرهابية فيها . وهو من غير شك أكبر مظهر للتعاون العربى ، بل لعله من أهم مظاهر التعاون فى الميدان الدولى كله .

وهكذا نرى أن الكفاح السياسى ضد الصهيونية قد بلغ ذروته بإنشاء جامعة الدول العربية ، وما ترتب عليه من توحيد كلمتها وتنسيق جهودها .

محمد عوض محمد